كيف هدي والد ولده ؟

للاستاذ السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندى

كان لوزير هندى مسلم ابن يتعلم فى جامعة كيمبردج فى انجلترا ولم يكن يلم بتعليم الدين الإسلامى إلماماً تاماً وإن كان أبوه متضلعاً فى العلوم القديمة الإسلامية والحديثة الغربية والتصوف . فانتهز المبشرون الفرصة وأرادوا تنصيره ووجهوا إليه أسئلة كثيرة ضد الإسلام كما هو ديدنهم فى مثل تلك الأحوال لينالوا من منزلة الإسلام فى قلبه ويقربوه إلى النصرانية . فتجاذبته الظنون وتخالجت فى صدره من دينه الشكوك فوقع فى حيرة وارتباك فكتب إلى أبيه يسأله ويستشيره فى الأمر فرد عليه أبوه رداً أنقذ به ابنه الشاب من كيد المبشرين ومكرهم وهو رد فصيح اللهجة ، قوى الحجة ، ملزم المحجة ، يدل على عقل أصيل ولب رصين قال : أريد أن أشرح لك لماذا اعتبر الإسلام أحسن الأديان بأسرها ؛ فلاحظ أننى لم أقل إن الأديان الأخرى رديئة بل إن الإسلام أحسنها ؛ وذلك لأنها لا توافق الأفكار الحديثة العلمية كما يوافقها الإسلام . فإذا قلت فى وصف دين من الأديان إنه « حسن » أو « الأحسن » فأريد به المدى الذى إليه يبلغ ذلك الدين فى حث الإنسان بواسطة عقائده وتعاليمه على الجد فى طلب الفلاح لنفسه . كذلك إذا ذكرت هنا كلمة «علم» فأريد به العلم المرتب للاشياء المعلومة أو القابلة للعلم .

إن العلم يحسر اللثام عن الأشياء التى هى ضرورية أو مطلوبة لفلاح الإنسان والفنون عموماً تدله على الطريق الذى به يحوز تلك الأشياء أو يصنعها والحكومات تجعل أو ينبغى لها أن تجعل له التحقيقات العلمية والتقدم فى الفنون يسيرة الملتمس دانية القطوف . وأما الدين فينبغى أن يحرك الإنسان ويحرضه على الإستفادة من العلوم والفنون العصرية استفادة تامة . وقد يخطر ببالك أنه ما دامت الحكومة قائمة بواجبها والعلوم تترعرع والفنون تتقدم فلا حاجة هناك للدين . فأقول إنك لو أخذت

والذى تم على يده تسليم غرناطة وإسدال الستار الأخير على مأساة الإسلام فى الأندلس ، كان ابناً لأمير غرناطة السابق أبى الحسن على بن سعد بن الأحمر من محظيته الاسبانية إيزابلا التى عرفت بين العرب باسم « ثريا » أو « الزهرة » . وكان أبو عبد الله هذا أثيراً لدى أبيه بفضل حظوة أمه المسيحية ؛ وبسبب ذلك انشق أخواه محمد ويوسف على أبيهما ، وكان كلاهما ابناً له من « عائشة » زوجته الثانية العربية المسلمة .

ولقد كان اختصام أبى عبد الله فيما بعد مع عمه أبى عبد الله الزغل[1] ، السبب المباشر فى سقوط غرناطة وانثلال عرش آخر حكومة إسلامية فى البلاد ...

لقد كانت النية التى عقدها ملوك الأسبان على طرد العرب صريحة ، وكان مصير المسلمين أمام هذا الزحف الجارف واضحاً ومحتوما ؛ ولم تكن نجدات المرابطين والموحدين التى تحركت من أفريقية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر لتؤثر إلا فى تعويق حلول المأساة التى كان الجميع يشهدونها بعين الخيال ، ويرون أنفسهم مسوقين إليها دون أن يستطيعوا لها دفعا . حتى لقد كان لسان الدين بن الخطيب وزير الغنى بالله محمد بن يوسف ابن الأحمر يوصى أولاده بعدم التوسع فى شراء العقار بالأندلس ؛ ويصرح لهم بأن هذه البلاد أصبحت للمسلمين دار غربة !

وأعجب من هذا فى الدلالة على توقع المسلمين لمصيرهم المحتوم ، ما قاله بعض شعرائهم إذ ذاك ... وكأنما كان يوصى إليه :

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس ... فما المقام بها إلا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منثوراً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه ... كيف الحياة مع الحيات فى سفط ؟

غفر الله لهؤلاء الأجداد الكرام زلاتهم ، وجعلنا ممن يتعظون بمحنتهم ، وألهمنا حسن التذكر لتاريخهم وسيرتهم . « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

محمود عزت عرفه

(١) أسر أبو عبد الله محمد فى بعض وقائعه مع الأسبان ، ولما صار الملك سعد أبيه إلى عمه أبى عبد الله الزغل أطلقوا سراحه لمناوأته ، فاستولى بمعونتهم على غرناطة وأخرج عمه إلى وادى آش . ولم يلبث الزغل أن تنازل عن بقية عمره كله إلى فرديناند لقاء مبلغ من المال وانتقل إلى فاس فتلقم عليه سلطانها وسجنه وعذبه حتى مات . أما أبو عبد الله محمد فبقى يدافع جيوش المسيحيين عن غرناطة حتى لم يبق من تسليمها بد ، فهاجر إلى المغرب حزينا كاسف البال واستوطن مدينة فاس وبها مات عام ١٥٣٨ م

حصاناً إلى النهر فهو لا يشرب منه ما لم يكن ظمآن ، فإنه إن عطش يشرب من تلقاء نفسه فإن لم يعطش فلا منظر الماء الصافي ، ولا سهولة الوصول إليه ، ولا ترغيبك إياه ، ولا ضربك بالسوط يحمله على الشرب . كذلك العلم يقدر أن يريك الماء أو أي شيء آخر مفيد ، والفنون تستطيع أن تدلك على طرق حيازته ، والحكومة يمكن أن تكافئك بالجوائز أو تهددك بالعقاب ؛ ولكنك لا تشرب ما دمت لست بظمآن ، أو بعبارة أخرى إنك لن تستفيد من الأشياء المقدمة إليك أو الموضوعة تحت تصرفك إذا لم يكن في داخل نفسك ما يدفعك لذلك . فهذا العطش ، هذا الدافع الباطني الذي هو في الحقيقة قوة محركة للانسان من ثمرة الدين وخليقته .

إن فائدة الدين العظمى هي الطموح الذي يوجده ويربيه في الإنسان أن يعيش سعيداً صالحاً [1] . صحيح أن الداعي للسلوك الحسن لكثير من الناس هو خوف العقاب أو أمل الثواب سواء أكان عاجلا أم آجلا . وإن بعض الأديان ومنها الإسلام تقدم صورتين لامعتين للجنة وجهنم المعدتين للصالحين والطالحين بعد الموت ، ولكن عند الطباع العالية ذوات القوى القوية لا قيمة لتلك الدواعي [2] فإنها مثل صوت السوط أو إراءة العشب للحصان الذي لا يجري . فهي ليست مؤثرة أثراً ثابتاً مثل الداعي الروحاني العالي الذي يخلقه الدين الحق في الإنسان للحياة الصالحة . إنني لا أقدر أن أشرح لك هذه النقطة أكثر من ذلك بغير الخروج عن الموضوع والدخول في المباحث الفلسفية الدقيقة . لذلك يكفي أن أقول لك إن الداعي الديني الروحاني خير من جميع الدواعي الأخرى للسير الحسن والحياة الصالحة . فإنه يعترف بروحانية الإنسان ويساعدها للاستيلاء على حيوانيته . قال الشاعر الفارسي :

آدمي زاده طرفه معجوني أست
از فرشته سرشته واز حيوان
كر كندميل أين شودكم أزين

وركند قصد آن شود به آزان

وترجمته :

« إن الإنسان مركب غريب
قد ركب بالملكية والحيوانية
فإذا مال إلى الحيوانية اتضعت رتبته عنها
وإذا قصد الملكية ارتفعت منزلته عنها »

إنه الدين الحق الذي يمكن الإنسان من أن يفوق الملائكة في الصلاح والتقوى وهو ما بينه السر أوليفر لودج أيضاً في كتابه « جوهر الدين حليف العلم » فاقرأه .

ثم هناك فائدة أخرى للدين وهي أنك كثيراً ما تتوخى القيام بأعمال جمة ، ولكن لا تقدر على أن تقوم بجميعها وذلك إما أنك عدلت عن قصدك أو حال أحد دون قيامك بها . فما يهم الاجتماع ونفسك من رغباتك الجمة التي تفوق أعمالك هو أن تكون حسنة تمثل أعمالك . ولا تقدر القوانين ولا التقاليد الاجتماعية على ضبطها ضبطاً صحيحاً لأنهما يختصان بالمظاهر الخارجية أي للأعمال الصادرة عن رغباتك ، وعواطفك ، وميولك الباطنية . فما يقدر على ذلك إلا الدين الحق مثل الإسلام الذي يحاسب على الرغبات التي تتحول إلى الأعمال حساباً كبيراً ، ويسعى في قتل الرغبات السيئة في مهدها أي قبل أن تتحول إلى الأعمال .

وعلى هذا فكل دين يقدر على أن يخلق في الإنسان أحسن الدواعي للسير الحسن ، ويسعى في إبادة الرغبات السيئة بكيفية مؤثرة فعالة لا بد من أن يوافق الأفكار الحسنة المعترف بها في العصر عند العلم والفن . وذلك الدين عندي هو الإسلام [1] .

وأما موافقة الإسلام للافكار العصرية فيكفي أن أمثل لك مثالا واحداً فإن المجال والوقت لا يسمحان لأكثر من ذلك وهو أن الإسلام ادعى في أول آية من السورة الفاتحة التي تحفظها أن هناك عوالم أخرى غير هذا العالم بقوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين » ولا تزال هناك بعض الأديان تدعي أن لا وجود لعالم آخر غير عالمنا هذا ، ولكن العلم في العصر الحاضر يدحض مثل تلك الدعاوى ويثبت وجود عوالم أخرى غير هذا العالم كما ذهب إليه

(١) أنا لا أعلم دينا لم يأمر لعمل الخير واجتناب الشر كما لا أعتبر ذلك الدين دينا الذي لم يأمر لعيشة سعيدة وحياة مرضية .

(٢) وهو ما في مذهب الصوفية فان الصوفي الخاص لا يعتني بأعماله شيئاً غير لائقة .

(١) لأنه يخلق أحسن الدواعي للاستيلاء على زيغ الطبع الانساني الذي منه اشتكى القديس بولس حيث قال : إن الخير الذي أنا أريد لا أعمله والشر الذي أنا لا أريد أعمله .